تفسير صراع وتناوب الدور بين الدولة والفرد من خلال تطور الفكر السياسي

Explaining the conflict and alternation of roles between the state and the individual through the development of political thought

نورالدين حاروش *
جامعة الجزائر3 – الجزائر
harrouche.noureddine@univ-alger3.dz

تاريخ الارسال:2024/05/17 تاريخ القبول:2024/11/19 تاريخ النشر: 2024/12/31

ملخص: لعل الدارس والمتمعن في تطور الفكر السياسي يلاحظ نوع من التناوب أو الصراع للأدوار بين الدولة والفرد، وذلك عبر المحطات الجغرافية والتاريخية والحضارية التي عرفتها البشرية، وقد دعمت هذه المحطات الفرد على حساب الدولة تارة والعكس تارة أخرى، لذا تهدف هذه الورقة البحثية لتوضيح وتفسير هذا التناوب أو الصراع، لتبيان حقيقته أهو تناوب عفوي أم هو صراع حقيقي غدته تطورات اجتماعية . فكرية . سياسية، أم هو نتيجة التطورات التكنولوجية ووسائل الإعلام والاتصال. تأسست الدولة عندما انتقل المجتمع من الحالة الطبيعية الى الحالة الاصطناعية أو المدنية، نتيجة نمو حب التملك والطمع في نفوس الأفراد، لذا جاءت الدولة كعلاج لهذا الشر المتأصل في الإنسان، ومنذ ذلك الزمن وصراع وتناوب الدور بين الدولة والفرد ما فتئ يطفوا على السطح بسبب العديد من العوامل الداخلية والخارجية ... وهي النتائج التي توصلنا إليها في هذه الدراسة، كما قدمنا استشرافا لمستقبل هذا الصراع أو التناوب في ظل العولمة.

الكلمات المفتاحية: الدولة. الفكر السياسي. الحضارات. الدور. العولمة.

Abstract: Perhaps who studies the development of political thought will notice a kind of alternation or conflict of roles between the state and the individual, across the geographical, historical, cultural that humanity has known. These stations have supported the individual at the expense of the state at times and vice versa at other times. Therefore, this research paper aims to clarify and explain This alternation or conflict, to clarify its truth, is it a spontaneous alternation or a real conflict fueled by social-intellectual-political developments, or is it the result of technological developments, media and communication. The state was established when society moved from a natural state to an artificial or civil state, as a result of the growth of the love of possession and greed in the souls of individuals Therefore, the state came as a cure for this evil, and since that time, the conflict and alternation of roles between the state and the individual has continued to increase due to many..Of the internal and external factors..these are the results we reached in this study. We also presented an outlook on the future of this conflict or alternation, especially in light of globalization.

Keywords: the state, political thought, civilizations. The role. Globalisation .

*المؤلف المرسل

مقدمة

تندرج دراسة الفكر السياسي ضمن الحياة السياسية للأمم والشعوب، وعليه فإن الحياة السياسية هي حركة الأمم عبر التاريخ من خلال حركة الحضارات المتعاقبة، حالة التدافع والتعاون، سواء كانت حالة الصراع والنزاع (صراع الحضارات)، أو حالة الحوار (حوار الحضارات)، ولكن أغلب الدراسات والوقائع التاريخية تشير على أن كل حضارة تقوم على أنقاض الحضارة التي سبقتها والقوة هي الفيصل والمحدد في ذلك.

بالمقابل فإن تطور الفكر السياسي ومن خلال المحطات الحضارية التي عرفتها البشرية ووفق نظرية القيم يعني الانتقال من موقف إلى موقف آخر من خلال ثلاث خصائص وهي: طبيعة الحركة، أي انصهار معين لجزيئات مختلفة لتشكيل وضع جديد، والخاصية الثانية هي أدوات التنقل وهي تلك الحقائق النظامية أو الهيكلية المخططة أو التلقائية التي تشكل الوضع الجديد، وأخر خاصية هي مسالك التطور وهو الطريق المتبع للوصول إلى الهدف، وقد شكل هذا الانتقال بمرور الزمن ثلاثة أنماط من الحضارات: الحضارة غير السياسية: وهي التي لا تقبل بوجود علاقة بين الحاكم والمحكوم مثل الحضارة الفرعونية، والحضارة اللاسياسية: وهي نموذج يدخل فيها طرف ثالث في العلاقة بين الحاكم والمحكوم: مثل الحضارة الإسلامية، والحضارة السياسية: وهو النموذج السائد حاليا، أي هناك علاقة بين الحاكم والمحكوم، بالرغم من وجود هذه الأنماط الثلاثة فإن أطرافها هما الحاكم والأفراد بصرف النظر عن طبيعة العلاقة، لأنه لا يتصور وجود حاكم بدون شعب أو أفراد؟

كما يجب النظر إلى كل فكرة سياسية في إطارها الطبيعي أي ارتباطها بالحضارة التي أنتجتها وليس خارجا عنها، والاعتماد على نظرية القيم لفهم ودراسة الفكر السياسي لما لها من خصائص ومميزات، وهذا ما يمكننا من معرفة وشرح وتفسير الدور المتبادل عبر هذه المحطات الحضارية بين الفرد والدولة، وما هي أسباب ونتائج ذلك وما هي العوامل الداخلية والخارجية التي تدخلت في عملية التبادل هذه، وهل هو فعلا تبادل للدور أم صراع؟

أهمية الدراسة: عبر المحطات الحضارية والتاريخية التي عرفتها البشرية، وفي شقها السياسي، يبرز من حين لأخر صراع وتناوب الدور بين الدولة والأفراد نتيجة بعض الاختلالات السياسية أو الفكرية والفلسفية أو حتى العسكرية، وعليه فأهمية دراسة مثل هذه الموضوعات تكمن في معرفة أسباب ذلك الصراع وتفسير نتائجه وكيفية تفاديه للحفاظ على التكاثف والتعاضد خاصة في ظل إكراهات العولمة وما رافقها من آثار سلبية على الفرد والدولة على حد السواء .

أهداف الدراسة: تسعى هذه الدراسة لتحقيق جملة من الأهداف العلمية والعملية ولعل ابرزها يتمثل فيما يلي:

- ✓ تسليط الضوء على صراع وتناوب الدور بين الفرد والدولة من خلال تتبع المحطات الحضارية والتاريخية

والفكرية التي مرت بها الإنسانية

- ✓ تفسير وشرح سبب الصراع وتشخيصه ومقارنته بين مختلف المحطات التاريخية والحضارية والفلسفية التي عرفتها البشرية
- ✓ تقييم مضمون الصراع والتناوب واصدرا بعض الأحكام بشأنه
- ✓ تقديم بعض الحلول والبدائل الكفيلة بتقليص الصراع والتحذير من مخاطر العولمة التي ما فتئت تعمل على التفكيك وتهييج هذا الصراع

إشكالية الدراسة: هل هناك تفسير علمي ومنطقي لصراع وتناوب الدور بين الدولة والفرد من خلال تطور الفكر السياسي، وما هو مستقبل هذا الصراع أو التناوب في ظل العولمة؟

فرضية الدراسة:

التعاون وتقاسم الأدوار بين الدولة والأفراد كفيل بتحقيق الأمن والسعادة وفي حالة الاختلال والعجز، لأسباب داخلية أو خارجية، تهتز مكانة وأهمية وجود الدولة وتفقد ثقة أفرادها.

منهجية الدراسة: الوصف والتحليل والتعليل والمقارنة هي عناصر يتم القيام بها في هذه الدراسة، لذا كان لزاما علينا الاعتماد على بعض المناهج العلمية على غرار المنهج الوصفي التحليلي والمنهج المقارن والمنهج الحضاري، بالإضافة إلى مقترب الدور الذي يعنى بتفسير دور الدولة السياسي والاجتماعي داخليا وخارجيا.

هندسة الدراسة: للمعالجة العلمية لهذا الموضوع، وقصد تقديم إجابة علمية مقنعة وشافية لإشكالية الدراسة، واختبار الفرضيات العلمية، ارتأينا الاعتماد على :

أولا: محددات الصراع أو الدور بين الفرد والدولة من خلال المحطات الفلسفية والحضارية والفكرية.

1: الحضارات الشرقية

2: الحضارة الغربية قبل وبعد ظهور المسيحية

3: من خلال عصر النهضة الأوربية وعصر التنوير

ثانيا: صراع وتبادل الدور من خلال الحضارة العربية الإسلامية و عصر النهضة اليقظة العربية الإسلامية

1: الحضارة العربية الإسلامية

2: عصر النهضة اليقظة العربية الإسلامية

ثالثا: مستقبل صراع الدور بين الفرد والدولة في ظل الإكراهات الراهنة (العولمة)

1: صراع الدور في ظل العولمة:

2: المظاهر الاقتصادية للعولمة:

3: مظاهر العولمة السياسية وعولمة القيم:

أولا: محددات الصراع أو الدور بين الفرد والدولة من خلال المحطات الفلسفية والحضارية والفكرية

1. الحضارات الشرقية

يقصد بالحضارات الشرقية جغرافيا، تلك المناطق من شرق الكرة الأرضية التي عرفت تطور وازدهار واكتشافات وانجازات في شتى مجالات الحياة، عرفت بالحضارة، نتيجة مساهمتها في تحسين حياة الأفراد والمجتمعات، والتي لا تزال بعض الشواهد منها إلى يومنا هذا، لذا سنخصص هذا الجزء من الدراسة لتسليط الضوء على ثنائية الصراع والتناوب في الأدوار بين الدولة والفرد التي ميزت هذه الحضارات.

1.1. الحضارة الفرعونية

التدرج في السلطة التنفيذية في الحضارة الفرعونية قائم على أساس مركزية القرار ولا مركزية التنفيذ، وهو أقدم نظام بيروقراطي عرفته الإنسانية، بحيث يقوم الملك الفرعون بالتنظيم العام لأمور الدولة واتخاذ المشاريع العامة والهيمنة على شؤون العلاقات الخارجية، كما يعتبر القائد الأعلى للجيش وإليه تنتسب انتصاراته، كيف لا وهو الذي يقود الجيش في المعارك والحملات التوسعية .هذا يعني أن الملك بالإضافة إلى سلطته التنفيذية فهو يتمتع كذلك بسلطة سن القوانين أي السلطة التشريعية، ومنه نستنتج أن الملك الفرعون كان يمثل الدول برمتها، بل هو الدولة ولا مجال لأي مشاركة أو دور للأفراد بأي شكل من الأشكال.[1]

2.1. حضارات ما بين النهرين

عرفت بلاد ما بين النهرين خمس حضارات متعاقبة ومتصارعة فيما بينها تارة، ومتعاونة ومتحدة تارة أخرى، وتعتبر الحضارة البابلية أهم هذه الحضارات، خاصة في ظل حكم الملك حامورابي.

نشأت دولة بابل نتيجة لامتزاج الاكاديين بالسومريين حوالي 2105 ق.م وقد عمرت هذه الدولة حوالي ثلاثة قرون، شهدت خلالها أرض ما بين النهرين وحدة سياسية لم تعرفها من قبل خاصة في ظل حكم الملك الطموح حامورابي1710 . 1670 ق.م ، فمن يكون هذا الملك وما هي أهم انجازاته التي بقيت خالدة؟

يعتبر حامورابي أقوى شخصية اعتلت عرش بابل، حيث تربع على العرش لمدة أكثر من أربعين سنة، قام خلالها بأعمال مجيدة خلدت في التاريخ ..يقال أنه لم يخسر معركة واحدة في المعارك التي خاضها واستطاع أن يوحد الدويلات وأن يقيم فيها الأمن والنظام وينشر بينها العدل والرخاء. بدأ في تنظيم شؤون مملكته داخليا،

وتقوية وسائل الدفاع، حيث مكنه ذلك من ضم بلاد الأشوريين إلى ملكه وهكذا سيطر على كل أراضي ما بين النهرين من شمالها إلى جنوبها.[2] وعندما اتسعت رقعة الدولة وكثر فيها النشاط لجأ إلى سن قانون يعرف حتى اليوم بقانون حامورابي بهدف نشر العدالة والطمأنينة من خلاله ونشر النور على الأرض ورعاية مصالح الناس، حيث يذكر في مقدمة هذا القانون: "أنا حامورابي الأمير الورع خادم الآلهة لأظهر الحق في البلاد ولأقضي على السوء والشر..."وبذلك فالدولة هنا هي الراعية لشؤون الأفراد وهي التي تقوم بدورها تجاههم خاصة بعد سن القانون، وما على الأفراد إلا الامتثال لقوانين الدولة والقيام بمهامهم وأدوارهم في ظلها.

3.1. الحضارة الصينية

برز الفيلسوف كنفوشيوس (القرن 6 ق م) كأحد المنظرين والمعلمين والإنسانيين في الحضارة الصينية وذلك نظير إسهاماته الفلسفية والسياسية، فقد ذكر أن السلطة يجب أن تتحقق بالإقناع والقبول والاحترام المتبادل بين الحاكم والمحكوم، بل أن الحاكم في هذه الحالة يجب أن يدعم بثلاثة عناصر أساسية وهي الاقتصاد والجيش وثقة الشعب، التي تعد الأهم على الإطلاق.

يفضل الحكم القائم على الفضيلة والخير، بدل التركيز على الحكم القائم على القانون الذي أساسه الخضوع عن طريق القوة والقهر، و دراسة الدولة أو الحكومة عنده لا تتم إلا من خلال دراسة الأفراد، فإذا صلح الفرد صلحت الحكومة والعكس، ومنه جاءت مقولته المشهورة "المعرفة الأساسية هي: معرفة الناس من وماذا يكون"؟[3] ومنه يمكن الاستنتاج أن الحضارة الصينية، خاصة مع كونفوشيوس، اهتمت بالفرد من خلال تنشئته ليقوم بادوار في الدولة وتحمل مسؤوليات، شرط أن يكون صالحا، والمحصلة مجتمع صالح وحكومة صالحة.

4.1. الحضارة الهندية

لعبت الهند في آسيا الدور الذي لعبته اليونان في أوربا والسبب في ذلك يعود إلى العامل الديني، حيث اشتهرت الحضارة الهندية بتعدد الديانات ولعل أشهرها والتي لا تزال الى يومنا هذا البوذية والبراهماتية أو الهندوسية، كما تميزت الحضارة الهندية بحب التقليد أي انتقال العادات من جيل لآخر، وهي تهدف من وراء ذلك إلى الوحدة بالرغم من التعقيدات والتناقضات الموجودة، ويمكن للشعب المساهمة في الحكم من خلال مجلس الشعب الذي يجتمع ويتخذ قراراته بالإجماع، لكن في الحقيقة الكلمة الأخيرة تعود الى الملك الحاكم، هذا يعني أن الأفراد تربطهم رابطة روحية تجاه الدولة من خلال اعتناقهم للديانات، خاصة البوذية، والتي تقوم مبادئها على الهداية والأخلاق والاستقامة والصدق والأمانة، وهي بذلك تساهم في التنشئة الاجتماعية، والفرد يجد مكانه ودوره في ظل الدولة وليس خارجها.

5.1. الحضارة الفارسيـة

كانت حياة الفرس حربية أكثر منها سياسية وذلك باعتمادها على القوة العسكرية .كان الملك يقف على رأس الإمبراطورية ويلقب بالمحارب، ولما كان هناك ملوك يحكمون أجزاء من الإمبراطورية، فقد لقب ملك فارس بالملك العظيم أو ملك الملوك، يتمتع الملك الفارسي بسلطة مطلقة وهي قائمة على القوة والبطش، ومع ذلك كانت ذات فائدة عملية إذ يسرت للملك مهمة حكم هذه البقاع الواسعة والمتباعدة .يمارس الملك سلطانه بواسطة الأشراف والأعيان وكانوا يؤلفون مجلسا استشاريا يعرض عليه الملك ما يشاء من أمور المملكة، وكانوا يمارسون سلطاتهم على القطاعات التي يحكمونها، والأفراد هنا يمتثلون لقوانين الملك ويلعبون أدوارهم وفقا لذلك، فلا مجال للخروج عن طاعة القوانين التي يصدرها الملك.

6.1. الحضارة الفينيقية

لا شك بأن النظام السياسي الذي كان سائدا في هذه الحضارة هو النظام الملكي، شانها في ذلك شأن الحضارات الشرقية الأخرى، بحيث كانت كل مدينة تشكل دولة قائمة بذاتها وعلى رأسها ملك، وهذه الملكية هي أشبه ما تكون بالملكية الدستورية في وقتنا الحاضر، ودستور المدينة – الدولة –الذي يمثل مجمل الأعراف والتقاليد، يجب أن يقترن بموافقة مجلس الشيوخ، هذا الأخير الذي يضم حوالي 300 عضوا يتم انتخابهم من طرف الشعب وهم من الطبقة الأرستقراطية والملك ينحدر من سلالة محترمة ومقدسة، والحكم ملكي وراثي، وفي حالة عدم وجود الأنسب من العائلة الحاكمة لتولي الحكم يلجأ في هذه الحالة إلى خارج العائلة للبحث عن حاكم تتوفر فيه شروط الحكم.،والأفراد يمتثلون لقوانين الدولة ويمارسون وظائفهم وأدوارهم في ظلها.

من خلال استعراضنا لمختلف الحضارات الشرقية لم يتبن ولم يبرز حقيقة الصراع بين الفرد والدولة، كون نظام الحكم في هذه الحضارات كان فرديا أو ملكيا لا مكان ولا مشاركة للأفراد وهي الحضارات التي تسمى بالحضارات غير السياسية، أي عدم وجود علاقة بين الحاكم والمحكوم، وفقا للتصنيف السابق، لكن الحقيقة أنه لا يمكن لوجود حاكم دون وجود أفراد والإشكال فعلا هو في مصدر السلطة، هل هي مستمدة من الشعب أم من الإله؟ مع التنويه ببعض الإسهامات الفكرية والفلسفية لبعض الفلاسفة التي كانت تدعو لمشاركة الأفراد في الحكم والاستماع إليهم وكيفية كسب ثقتهم التي تعد دعامة رئيسية للسلطة.

2. الحضارة الغربية قبل وبعد ظهور المسيحية

نتيجة الممارسات الميدانية على أرض الواقع، والتي كانت للأسف، في اغلبها مخالفة لما كان يدعو إليه فلاسفة الإغريق من مثل عليا والتحلي بالأخلاق الفاضلة وحب الخير ونشر العدالة وتحقيق وتحصيل السعادة تحت راية الدولة، كل هذه المثل راودتها بعض الشكوك، خاصة بعد هجمات الاسكندر المقدوني الذي ضرب

عرض الحائط مبادئ الفلسفة الإغريقية القائمة على الفضيلة والأخلاق في ممارسة الحكم، لذا ظهرت العديد من الأصوات تتساءل عن جدوى وجود الدولة لان التجربة أثبتت فشل هذه الدولة في تحقيق سعادة الأفراد، وسنستعرض أهم المحطات التي عرفتها الحضارة الغربية للوقوف عند تناوب وصراع الدور بين الدولة والفرد.

1.2. الحضارة الإغريقية اليونانية

أ. إسهامات سقراط: سقراط فيلسوف إنساني، كان يمضي جل أوقاته في المحاورات والمناقشات مع مختلف أطياف المجتمع، وكان يهدف من وراء ذلك تربية المجتمع، المعروف عنه انه هاجم الديمقراطية نتيجة مساواتها بين العالم والجاهل، ويقول أنه لا يمكن أن يكون كل الناس في الحكومة نتيجة عدم أهلية البعض، كما لا يمكن أن يكون الإنسان عادلا في مجتمع غير عادل...هذا يعني أن سقراط كان منطقيا في مسألة تولي منصب الحاكم أو باقي المناصب الحكومية، وهي المعرفة والأهلية، عكس ما كنت تدعو إليه الديمقراطية: حكم الشعب، بغض النظر عن أهليه هذا الشعب؟

ب. إسهامات أفلاطون: تقوم الدولة المثالية عند أفلاطون على مبدأ تقسيم العمل بين أفرادها، الذين يتوزعون وينقسمون إلى ثلاث طبقات اجتماعية وهي: طبقة الحكام، وطبقة الجنود، وطبقة المنتجين والزراع والصناع والرعاة، وكل طبقة من هذه الطبقات ينبغي أن تؤدي وظيفتها على أكمل وجه متحلية بفضيلتها وبدون أن تتدخل أي طبقة في عمل الأخرى، حيث رأى أفلاطون أنه من الخطر الكبير على الدولة أن يتبادل النجار والحذاء (الاسكافي) حرفتيهما أو أن يتبادلا أدواتهما وأجورهما أو أن يصر شخص واحد على القيام بالحرفتين معا[4] ، كما يضيف أفلاطون بأن التعدي على وظائف الغير والخلط بين الطبقات الثلاث يجر على الدولة أوخم العواقب بحيث أن المرء لا يعدو الصواب إذ عد ذلك جريمة، وعليه فهو أمر مخالف للعدالة، كما أن وجود الطبقات الثلاث في الدولة هي من دواعي اكتمال الدولة المثالية التي يتحقق في إطارها الخير للجميع، وبالرغم من الانتقادات التي وجهت لأفلاطون بخصوص النظام الطبقي الذي هو أساس تحقيق العدالة حسبه، كون هذا النظام صارم ومتحجر وجامد، إلا أن أفلاطون دافع عن فكرته وهي بناء دولة مثالية على أساس اقتصادي سليم يقوم على تبادل المنافع والخدمات والسلع بين طبقات الدولة وأفرادها، بحيث يحل هذا التبادل للمنافع، سواء كانت مادية أو معنوية، محل الفردية والأنانية التي يريد كل فرد في إطارها أن يقوم بعمل كل شيء دون أن يتخصص في شيء بعينه فيتقنه.

تتمثل العدالة عند أفلاطون في كمال النفس وهي أيضا في كمال الدولة، وإذا كانت النفس التي تحسن أداء وظيفتها هي النفس العادلة، "وظيفة الشيء هي ما يؤدّيه هذا الشيء وحده"، ومن ثم فإنّه يكون حسنًا وكاملاً بقدر ما يؤدي هذه الوظيفة بنجاح تام، فكمال العين مثلا هي أن تحسن الإبصار، فكذلك تكمن العدالة في الدولة التي يقوم كل فرد فيها بأداء وظيفته على الوجه الأكمل. ومنه فالعدالة عند أفلاطون هي " قيام كلّ فرد بوظيفته على الوجه الأكمل" في الوقت الذي " تحافظ له الدولة على هذه الوظيفة بحسب المواهب والمؤهلات

الطبيعية الكامنة فيه". " إنّ على كلّ فرد أن يؤدّي وظيفة واحدة في المجتمع هي التي وهبته الطبيعة خير قدرة على أدائها"، فمن "العدل أن ينصرف المرء إلى شؤونه دون أن يتدخل في شؤون غيره"[5].

ت. إسهامات أرسطو:. إن النواة الأولى لتكوين الدولة هو الإنسان، وبالنسبة لأرسطو فهو حيوان سياسي وهو، الإنسان، يتميز عن غيره من الحيوانات بانتمائه إلى حاضرة، مدينة، وهذه هي ثمرة المدينة أي نهاية المطاف في تطور التجمعات الإنسانية التي كانت مراحلها الأسرة أو العائلة، ثم القبيلة، وبعدها القرية فالمدينة.[6] ويرى أرسطو أن الدولة هي الهيئة أو المؤسسة الوطنية، المعنوية، التي ينتمي إليها أبناء الشعب وتربطهم بها علاقة روحية تقوم على العادات والتقاليد والقوانين التي يسرى مفعولها على أبناء المجتمع الواحد،[7] ، والدولة حينئذ أسمى من الفرد والعائلة والقرية، أي الكل أسمى من الجزء ..ولا يمكن الشك في أن الدولة هي بالطبع فوق العائلة لأن الكل هو بالضرورة فوق الجزء، ولكل جزء دور في هذا الكل ولكن عندما نصل إلى الكل يفقد الجزء معناه، فاليد مثلا لها دور مع باقي أعضاء الجسم ولكن إذا قطعت أو فصلت اليد عن الجسم فلم تبق يدا في الحقيقة وهكذا الفرد داخل الدولة ..والدولة هي التي تهدف إلى تحقيق الخير العام لرعاياها وأرسطو يربط السياسة بالخير أي الأخلاق[8] ، إذن فهل الخير والأخلاق مجرد تصورات يبني عليها أرسطو دولته الفاضلة أم أنهما عنصران يمكن أن يتجسدا فعلا؟

المدينة عند أرسطو هي غاية المجتمع وغاية الشئ هو خيره . تتألف المدينة من عدة طوائف :كالعمال – الفلاحين –المنجمين والكهنة –الحكام...ولا يمكن أن تحل طائفة محل الأخرى، ولا يستحق لقب المواطن *منهم إلا الممتازون الأحرار.

ومهما يكن فإن المفكرين اليونانيين اعتمدوا على منهج الملاحظة والتخطيط لكي يضمنوا للقبائل اليونانية الاستقرار السياسي والتغلب على الصراعات الاجتماعية التي كانت موجودة والتي كانت تقف أمام تقدم المجتمع، زيادة على هذا فإن هؤلاء المفكرين كرسوا مجهوداتهم العلمية لخدمة المصلحة العامة ودعوا إلى إقامة نظام سياسي يحقق العدالة ويثقف ويعلم ويربى النشء الصاعد، وللفرد دور في ظل الدولة وهو جزء منها.

ث. إسهامات بعض المدارس الفلسفية

بعد انهيار دولة المدينة، وسقوط الدويلات اليونانية الواحدة تلوى الأخرى بدأ نوع من الشك في سلامة الأفكار والنظريات التي أتى بها كل من سقراط وأفلاطون وأرسطو، وبالتالي فإن الفكر السياسي اليوناني في هذه الأثناء يحاول إعادة ضبط أفكاره وتكييف المثل العليا وهو عمل ضخم واجهته الفلسفة اليونانية مع مقتضيات هذه المرحلة، وأن الأمر الذي كان يهدد المدينة والدويلات الأخرى بالنكبات أصبح نقطة بداية جديدة في التفكير

وأصبحت النظرة إلى حقوق الإنسان مبدأ عالمي و أن العدل والإنسانية جزء لا يتجزأ من ضمير الوعي الأخلاقي لدى الأمم، وقد تحول المثل الأعلى للوطنية الحرة لصفة المواطن الحر لتولي الوظائف العامة والقيام بأعمال سياسية ليس بشأن يذكر، هذه المثل العليا وضعت على شكل مجموعة من القوانين والحقوق يستطيع الفرد بموجبها أن يطالب بحماية الدولة له، ومن بين المدارس التي سارت في هذا النهج ودعمته المدرسة الرواقية.

إن التحالف الخارجي ضد أثينا سنة 412 ق.م وسقوطها على يد إسبرطة عام 404 ق.م وانهيار الدويلات اليونانية الأخرى على يد الإسكندر المقدوني أثار شكوك في سلامة وصحة الأفكار والمبادئ التي آتى بها مفكري اليونان، سقراط وأفلاطون وأرسطو، ومعها تضاربت المصالح الخاصة مع المصالح العامة وأعطت فكرة عامة مفادها أن الدولة ليست ضرورية لإيجاد حياة فاضلة، وبالتالي فلا فائدة من المشاركة السياسية وإضاعة الوقت في المناقشات الشعبية مادامت الأخلاق الفاضلة قد اختفت والأفراد أصبحوا يبحثون عن مصالحهم الخاصة، وهذا بمثابة رد فعل شعبي ضد الدويلات اليونانية التي فشلت في تحقيق العدالة الاجتماعية .وهذا يقودنا إلى فكرة المجتمع المثالي التي قامت عليه النظم السياسية اليونانية حيث فقدت قيمتها وحل محلها اتجاه سياسي آخر يقوم عل أساس البحث عن السعادة الفردية، وفعلا لقد أثرت الظروف التي أطيح بها بالأنظمة السياسية في الدويلات اليونانية تأثيرا كبيرا في معنويات الأفراد إلى درجة أنهم أصبحوا يتساءلون عما إذا كان للإنسان ارتباط وثيق بالأنظمة السياسية، فلم تراع الناحية الأخلاقية عندما أخضع الإسكندر المقدوني الدويلات اليونانية لنفوذه، ولم تحتفظ المنظمات السياسية بما فيها الدولة بقدرتها على إيجاد حياة فاضلة للأفراد[9]. ومنه طرحت المدرسة الرواقية إشكالا وهو :كيف يمكنني أن أعيش سعيدا؟ وهذا عكس السؤال الرئيس الذي كان يشغل بال الفيلسوف أرسطو وهو" كيف يمكن للبشرية أن تعيش"؟

من جهتها انتهجت المدرسة الأبيقورية منهج المدارس الفلسفية التي ظهرت بعد عصر أرسطو، وهي أن تخلق في تلاميذتها صفة الاكتفاء الذاتي الفردي، وفي سبيل ذلك كانت تلقنهم أن الحياة الفاضلة تقوم على التمتع باللذة ولكنها فسرت ذلك بطريقة سلبية، فالسعادة تقوم على اجتناب كل ألم وهم وقلق، والجانب الإيجابي للسعادة في هذه المدرسة هو الانعزال عن مشاكل الحياة العامة التي لا جدوى منها، وعلى ذلك لم يكن للرجل الحكيم دخل بالشؤون السياسية ما لم ترغمه الظروف على ذلك، وعموما فإن الفكرة السياسية التي تقوم عليها هذه المدرسة هي أن الفرد يبحث عن إشباع رغباته بجميع الوسائل الممكنة، وبهذا تختلف عن المدرسة الرواقية التي تدعو إلى الكف عن ملذات الحياة وإخضاع كل شيء للعقل والتفكير المنطقي.

2.2. الحضارة الرومانية

أ. إسهامات شيشرون: يرى شيشرون أن الدولة إذا أرادت البقاء باستمرار فيجب عليها بل يلزمها الاعتراف بالحقوق التي تربط مواطنيها بعضهم البعض وبينهم وبين هذه الدولة، والدولة بذلك هي جماعة معنوية من الأشخاص يملكون الدولة ويسميها مصلحة الناس المشتركة،[10]، فالدولة إذا لم تكن قائمة في الجماعة لأغراض خلقية وإذا لم تكن قوامها الروابط المعنوية التي تجمع بين الناس فهي كما قال أوغسطين فيما، عصابة مسلحة من قطاع الطرق تسلب الناس أموالهم على أكبر نطاق واسع، لقد سمي شيشرون الدولة بمصلحة الناس المشتركة أي أولئك الذين يجتمعون في أعداد كبيرة يربطهم توافق رأي مشترك والرغبة في المساهمة معا فيما يعود عليهم جميعا بالنفع المشترك[11].

وهكذا فالدولة حسب شيشرون تشبه المؤسسة المساهمة، العضوية فيها ملك عام لجميع مواطنيها وهي تقوم لتزويد أعضائها بثمرات المساعدة المتبادلة والحكم العادل[12].

ب. إسهامات سينيكا: ابتعد سينيكا عن العقيدة القديمة التي ترى بأن الدولة هي المركز الأسمى للكمال المعنوي وبالمقابل فقد ركز اهتمامه وتعظيمه للعصر الذهبي للإنسانية، وهو العصر الذي اعتبره سابق عن عصر المدينة والدولة والحضارة، فماذا يقصد إذا بالعصر الذهبي ؟

يصفه سينيكا بأنه تلك الحياة الطبيعية الفطرية الساذجة ...ففي ذلك العصر يقول سينيكا، احتفظ الإنسان بسعادته وبراءته وعشق الحياة البسيطة الساذجة .حقا لم يكن الإنسان حينها حكيما ولا كاملا معنويا، لكن كان عنصر الخير فيه نتيجة لبراءة الجهالة، أي أن الإنسان لم يكتسب بعد ذلك الحافز الخطير المتمثل في الطمع والاتجاه إلى الملكية الفردية و بظهورهما تم القضاء على الطهر البدائي، ولو بقى هذا الطهر لما احتاج الإنسان لا إلى دولة أو حكومة أو قانون، وكان الناس يتطوعون بالامتثال لأوامر أكثر رجالهم قدرة وأعظمهم حكمة، هؤلاء الرجال لم تستيقظ في نفوسهم بعد تحقيق المآرب الشخصية، ولما استيقظت أولا في الناس الرغبة في التملك والحيازة وتحقيق الأغراض الشخصية استيقظت كذلك في نفوس الحكام انقلبوا إلى طغاة مستبدين[13]، في هذه الحالة كثر الفساد وعم ...وأمام هذا الأمر فلا بد من قيام القانون واستعمال وسائل القسر والإكراه للحد من مساوئ الطبيعة البشرية ومفاسدها، وباختصار فإن الحكومة هي الدواء الضروري لعلاج الشر المتأصل في الإنسان، وبعبارة أخرى فهي شر لا بد منه .

ت. إسهامات القديس أوغستين: أعاد أوغستين تكييف النظرية القديمة التي تقول بولاء الإنسان لمدينتين، المدينة التي ولد بها، ومدينة الله تكييفا يتمشى مع وجهة النظر المسيحية ...ففي طبيعة الإنسان ازدواج من حيث روح وجسد

وهنا يكون مواطنا للعالم الدنيوي وللمدينة السماوية في نفس الوقت، ويرى أوغستين أن هذين المدينتين هما في حالة تنافس واحتكاك، فتقف مدينة الأرض إلى جانب الحوافز والدوافع التي تهدف إلى السلطة والتملك وتقف مدينة الله إلى جانب السلام السماوي والخلاص الروحي، والتاريخ ليس إلا هذه القصة المثيرة للصراع بين المدينتين والغلبة النهائية من نصيب مدينة الله وهكذا يفسر أوغستين سقوط روما *لأنها مدينة أرضية ومآلها الزوال حتما

ث. إسهامات توما الإكويني: يرى توما الإكويني أن الكون عبارة عن نظام مرتب يمتد في درجات تبدأ من الإله في أعلاه وتنتهي عند أدنى المخلوقات، ويعمل كل كائن منها بدافع داخلي مستمد من طبيعته مجاهدا في سبيل الخير أو الكمال الملائم لطبقته من المخلوقات وذلك حسب قدراته الجسدية والعقلية، ويظل مجاهدا حتى يأخذ مكانه في هذا النظام التصاعدي، وبطبيعة الحال يسيطر الأعلى على الأدنى، وكما يسيطر الله على العالم تسيطر الروح على الجسد، ولكن لكل كائن قيمته .والمجتمع كالطبيعة له أهداف وغايات تقضي على الأدنى بأن يخدم الأعلى وأن يطيعه، في حين أن على الأعلى أن يسود الأدنى.[14]

أيد توما الإكويني أرسطو الذي رأى في تبادل المنافع والحاجيات، أساس نشأة الدولة، لأن الإنسان لا يستطيع أن يكفي نفسه بنفسه، لذلك تعددت المهن والوظائف لتشكل في الأخير كل متكامل يضمن الحياة الطيبة السعيدة التي يطمح إليها أفراد المجتمع وهي غاية طبيعية لبني البشر .أما الدولة فهي هيئة موحدة، وتسعى لتحقيق العدالة على يد حكومة عادلة.

3. صراع وتناوب الدور من خلال عصر النهضة الأوربية وعصر التنوير

1.3. عصر النهضة: عرفت إيطاليا، وفرنسا، وانجلترا وألمانيا نهاية القرن 15 م وبداية القرن 16 م. نهضة فكرية وعلمية وفلسفية شاملة، وما ما حققته البشرية بداية من عصر النهضة ولمدة أربعة قرون لم يتحقق في العشرات من القرون السابقة وذلك في جميع المجالات.

البداية كانت مع الإيطالي ميكيافلي ورؤيته للحاكم القوي والمهاب، الذكي النبيه الفطن، الذي بإمكانه استعادة مجد روما وبناء دولة قومية قوية، قابلة للبقاء ولها نفوذ وفصل الدين والأخلاق عن الدولة، ومنه يتضح لنا المفهوم الواقعي للعلاقات بين الدول القائم على أساس القوة والمصلحة والمنطق "وقانون" الغاب، الذي لا يزال هو المهيمن في العلاقات الدولية إلى يومنا هذا.

يعرف ميكيافلي بكتابه الأمير الذي نشر بعد وفاته بخمس سنوات، هذا الكتاب لخص فيه ميكيافلي أسباب قيام الدولة، وزوالها، وكيف يستطيع الساسة المحافظة عليها، بالإضافة إلى أنواع الحكومات، وكان يهدف من وراء ذلك تقديم نصائح وإرشادات عملية للأمير في سبيل استعادة مجد روما الضائع، وبالتالي كانت نظرته

للدولة وليس للأفراد الذي يعتبرهم أنانيين ويحبون مصلحتهم فقط، لذلك قدم لولي العهد مجموعة من الإرشادات والنصائح قصد العمل بها عندما يعتلي عرش روما لعل وعسى يستطيع أن يعيد لروما مكانتها الطبيعية، من خلال تخليص السياسة من الاعتبارات الأخرى كالدين والأخلاق.

أما بشأن نصائحه للأمير فهي تتمثل في عدم الانفعال، والاستفادة من الفرص، وأن تكون له القوة ما يمكنه من ارتكاب المعاصي إذا اقتضت مصلحة البلاد ذلك، وأن يكون نبيها يفهم نفوس البشر، واستعداده لمحاربة الشر، واستعمال الناس لقضاء أغراضه حسبما تتطلب الظروف، ويجب أن يكون الأمير واثقا من نفسه لا يخاف ولا يتردد، كما عليه التخلص من الجنود المرتزقة وإنشاء جيش وطني ... هذه النصائح تعبر عن وطنية ميكيافلي الزائدة عن اللزوم، فغيرته المفرطة على وطنه روما، جعلته ينصح الأمير بالتضحية بالأفراد واستغلالهم إذا اقتضت ضرورة البلد ذلك.فهل يمكن الآن معرفة ميكيافلي الحقيقي وليس وصفه بالبراغماتي والأناني والغاية تبرر الوسيلة التي عادة ما يوصف بها؟

ثم تلتها حركة الإصلاح الديني البروتستانتي من خلال إسهامات مارتن لوثر وجان كالفن، فقد ساعد هذا المذهب الثالث على تهديم ما تم بناءه في القرون الوسطى، المتمثل في الصراع بين السياسة والدين، ومجيء هؤلاء المصلحون بتصور للمجتمع والدولة منبثق من الديانة المسيحية متجاوزين التضليل الذي عرفه الغرب في القرون الوسطى، إذ تم تحرير عقل الفرد الأوربي من مغالطات الكنسية الكاثوليكية وتم التركيز على الفرد وتقديس العمل، بالمقابل أيد لوثر وكالفن الحكام والسلطة الزمنية وأقروا بطاعتها شريطة تأييدهم في نشر مذهبهم، (الأخذ والعطاء وتبادل المصالح والأفكار)، ويبدو أن أهمية أفكارهما تجلت فيما بعد.

تدعمت مرحلة النهضة الأوروبية بأفكار جون بودان حول مفهوم السيادة، تلك السلطة المطلقة على المواطنين وجميع رعايا البلد ولا تتقيد بقانون، والحاكم حرا، ووظيفة السيادة هي خلق القانون، والملك واجب عليه طاعة القوانين الإلهية والطبيعية، وهو ملزم باحترام المعاهدات، والسلطة لا تفوض ولا تقبل الانقسام، وإلا زالت الدولة وانهارت. ويتضح من خلال هذا محاولته تبرير الحكم المطلق للدولة ذا ت السيادة والملك صاحبها لإنقاذ فرنسا، والسبب في هذه المساندة تلك الظروف التي عاشتها فرنسا.

لا يمكن لأحد أن يكون سيدا في الجمهورية إلا واحد فقط ...كيف يمكن تصور جسم بعدة رؤوس أو شعب يتولى السيادة[15]. بودان وهو يدافع عن الملكية يفضل أن تكون الملكية شرعية يطيع فيها أفراد الرعية قوانين الملك ويطيع فيها الملك قوانين الطبيعة وهذا توفيق بين السيادة المطلقة الخالصة وبين حرية الأفراد التي تقوم جوهريا على الملكية الخاصة الفردية. ويعرف الدولة بأنها حكومة شرعية من اسر عدة ومن ممتلكاتها المشتركة ولها سلطة

غالبة والشرعية هنا يقصد بها العدالة أو التماشي مع القانون الطبيعي .[16]

تبني فكرة التسامح الديني وسيطرة الدولة على الناحية الدينية، وقوة الدولة فوق قوة الحكام، أما الدين فهو مسالة تخص كل فرد والوحدة في الدولة وليس في الدين ... وكل هذه الدعائم من اجل مساندة وتأييد الحاكم الذي يفضله بودان لأسباب موضوعية وأخرى ذاتية..

2.3.العصر الحديث: سادت بريطانيا عدة اضطرابات خلال القرن 17م، خاصة بعد إعدام الملك شارل الأول 1649م، وقيام جمهورية لفترة قصيرة ثم قيام نظام ملكي، وكانت فحوى الاضطرابات بين السلطة والشعب والبرلمان ورجال الدين، من هنا ظهر المفكر المادي النزعة توماس هوبز، من اكبر أنصار الحكم المطلق، وصاحب نظرية العقد الاجتماعي، وصاحب كتاب التنين léviathan 1651 ، فالعقد الاجتماعي حسبه يعني أن الأفراد تنازلوا طواعية لشخص واحد وهو الملك، وهو ليس طرفا في هذا العقد، من اجل فرض السلطة المطلقة وفي نفس الوقت مطالب بتوفير الأمن والسلم والعدالة ... فالأوضاع الصعبة، والحروب التي عاشتها انجلترا أثرت في هوبز وجعلت جل اهتمامه منصب في البحث عن الوسيلة الكفيلة التي تخلص البلاد، لذلك رأى أن النظام السياسي الذي تتجسد فيه السيادة المطلقة كفيل بتحقيق ذلك.

برر هوبز اللجوء الى العقد الاجتماعي كون الحالة الطبيعية هي حالة فوضى والناس متساوون بالطبيعة وعنها ينبثق الحذر وعنه تنشأ الحرب بين الناس، والحياة عزلة وفقيرة وحيوانية ولا وجود لمفهومي العدل والملكية، وهو عكس ما عبر عنه سينيكا بأنه العصر الذهبي أو الحياة الطبيعية البدائية الأولى التي كانت عادلة وهادئة... ويبحث القانون الطبيعي حسبه على السلم ثم الدفاع عن الذات بكل الوسائل المملوكة من أجل تحقيق السلم والأمن، وليس في يد الناس من وسيلة أفضل من إقامة عقد فيما بينهم بالاتفاق المتبادل، وهو عكس أرسطو الذي يرى المجتمع السياسي ليس واقعة طبيعية، بل هو ثمرة اصطناعية لميثاق إرادي ولحساب مصلحي .

في نفس الأوضاع ومن نفس البلد انجلترا، ظهر مفكر آخر ليعالج نفس الموضوع، العقد الاجتماعي، وهو جون لوك، حيث رأى بأن الدولة يمكنها التدخل في حالة الإخلال بالأمن من طرف الجماعات الدينية، ولا سعادة بدون ضمانات سياسية ولا سياسة إن لم تحقق السعادة، وقد اشتهر بـ: عندما ينتهي القانون يبدأ الطغيان، والعقد عنده بين الأفراد فيما بينهم من جهة والملك من جهة أخرى. كما يحق للشعب القيام بالثورة إذا تخلت السلطة عن الحقوق الطبيعية (الحرية والملكية الفردية).

وعلى عكس هوبز، يرى لوك أن الحياة قبل التعاقد لم تكن متوحشة، وسبب التعاقد هو تحسين وضعية الأفراد، فالحياة في الحالة الطبيعية ناقصة، فنجد الناس مثلا في هذه الحالة قضاة في قضاياهم، وهذا غير ممكن، لذا

جاء العقد الاجتماعي لمعالجة هذا النقص بإنشاء مجلس القضاء للنظر في القضايا يكون مستقلا، وعليه فنحن هنا بصدد الانتقال من الحياة الطبيعية إلى الحياة المنظمة ومنه إلى المجتمع المنظم، وهذا العقد بنى على الحقوق الطبيعية، هذه الحقوق لا تزول بقيام الحكومة المدنية، والعقد اتفاق البشر فيم بينهم من اجل تحقيق السعادة، وحق استعمال قوة الجماعة لتنفيذ القوانين، الأفراد تعاقدوا وتخلوا عن جزء من حرياتهم للسلطة السياسية لكي تحافظ على أمنهم وحماية حقوقهم وممتلكاتهم والحاكم هنا طرف في العقد عليه التزامات وواجبات ويخضع للقانون ولا يكون فوقه .. لأن سبب المآسي الإنسانية هم الحكام الطغاة.

3.3. عصر التنوير: الأوضاع التي عرفتها فرنسا والمتمثلة في استيلاء النبلاء ورجال الدين على الثروات، وعدم الاهتمام بالأوضاع الداخلية، وبالمقابل التركيز و الاهتمام بالخارج لمحاولة بسط النفوذ وتنشيط التجارة الخارجية...هذه الأوضاع مهدت الطريق للثورة الفرنسية، وفي هذه الأثناء يأتي مونيسكيو المعروف بنظرية الفصل بين السلطات، والذي مدح الدستور الانجليزي، الملكية الدستورية، ورأى أن الإصلاح الحقيقي ليس سياسيا بل فكريا وأخلاقيا وتربويا، وأن الدين هو الكابح الاجتماعي، والمساواة المطلقة حلم، وتبتعد المساواة الواقعية عن المطلقة كبعد السماء عن الأرض، وقد أمتاز روسو بالعقلانية في التحليل والدقة في التصور والتنوع في الدراسة، لذلك كانت أفكاره مؤثرة في الواقع الأوربي، ومساهمته الفكرية في الثورات على الأنظمة السائدة في عصره والتي جاءت فيما بعد، بالرغم من عدم إيمانه بوجود أنظمة وسيطة كالنقابات والأحزاب والجمعيات.. أما الحرية السياسية فهي ليس أن يفعل الإنسان ما يريد، وإنما هي الحق في فعل ما يريد في حدود ما يسمح به القوانين. أما روسو فالإنسان حسبه هو ذلك الكائن الأناني الذي تتضارب مصلحته مع المصلحة العامة، إلا أن هذه المصالح الفردية المختلفة هي التي تدفع الأفراد إلى عقد الاتفاق الاجتماعي لضمان أمنهم واستقرارهم، وينطلق روسو في تعريفه وتفصيله لهذا العقد بداية من الأسرة أين تكمن الطاعة التلقائية لرب الأسرة نظير الرغبة في المحافظة على النفس والعطف المتبادل ونفس الشيء يأتي مع الحاكم في الدولة وأفراد المجتمع.

الدولة الشرعية عند روسو هي تلك التي تحكم بالقانون لأنه يعبر عن الإرادة العامة، وهو لا يقبل بتقسيم السلطات المعروفة مثل مونتيسكيو، من جهة أخرى يرى أن الحكومة تتقهقر وتخون السيادة، وبالتالي فلا معنى لوجود المؤسسات بدون الآداب، وهنا يتفق مع مونتيسكيو، ولذلك من الواجب الاهتمام بإعداد المواطنين لتحقيق التضامن في الجسم الاجتماعي، ولن يتم ذلك إلا بالتربية والدين وحب الوطن والفضيلة والواجبات المدنية...

ساد الاعتقاد في انجلترا خلال القرن 18م أن بعض الأفكار السابقة لم تعد محل الإجماع والاتفاق ومنها القناعة بأن هناك أشياء ثابتة بذاتها وأن العقل وحده كفيل بالوصول إلى الحقيقة... الأمر الذي أدى إلى ظهور مدرسة

جديدة عرفت باسم المدرسة التجريبية والذي يعد الفيلسوف دافيد هيوم أهم روادها، هذه المدرسة تنادي بأن العقل وحده لا يكفى لإثبات صحة أي شيء، بل لابد من وجود دليل مادي يثبت صحته بالتجربة العملية، ومنه أصبح القانون الطبيعي ونظريتي العقد الاجتماعي والحقوق الطبيعية موضع ريب وشك، وبذلك انهار الأساس النظري الذي قام عليه المذهب الليبرالي وظهور أساس نظري جديد تزعمه نخبة من الفلاسفة في أواخر القرن 18م وعرفوا باسم الراديكاليين الفلاسفة، ويأتي جيريمي بنتام وجون ستيوارت ميل على رأسهم.

تبلورت أفكارهم بما يعرف بالفلسفة النفعية والتي فحواها أن البشر أنانيون بطبيعتهم يسعون لتحقيق السعادة وتجنب الألم، وهي نفس أفكار ومبادئ المدرسة الأبيقورية حوالي 300 ق م، أما الملكية عند رواد هذا المبدأ فهي حق مقدس وأساسي لا بوصفه حقا طبيعيا، ولكن لما يوفر من إحساس بالأمن للفرد .للتذكير فإن الإحساس بالأمن والأمان هما أهم أركان السعادة، وعليه فمن واجب الدولة تأمين ممتلكات الناس والمحافظة عليها، ووجب تدخل الحكومة للتوافق بين مصالح الأفراد ومصالح المجتمع، وذلك بانتشار السعادة، حيث سيشعر الفرد بالسعادة إذا شملت أكبر عدد ممكن وحتى الأنانيين يتصرفون بشكل لائق حينها من خلال تطبيق القانون والمنفعة الذاتية المستنيرة، أي انسجام صالح الفرد والصالح العام.

ثانيا: صراع وتبادل الدور من خلال الحضارة العربية الإسلامية و عصر النهضة اليقظة العربية الإسلامية

نستعرض في هذا الجزء من الدراسة إسهامات الفلاسفة المسلمين في فترتين زمنيتين متباينتين، تتمثل الأولى في مرحلة الحضارة العربية الإسلامية والتي امتدت من القرن السابع ميلادي وحتى سقوط الخلافة العباسية (سقوط بغداد 1257م)، حيث نسلط الضوء على بعض الإسهامات الفقهية والفلسفية والاجتماعية، بينما تتمثل المرحلة الثانية في عصر النهضة أو اليقظة العربية الإسلامية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، ونسلط الضوء فيها على مختلف التيارات الفكرية التي ميزت تلك الفترة وهي: الليبرالية والثورية والإصلاحية والقومية، وهي كلها اهتمت بالمجال السياسي وعالجت الدولة وأدوارها ومكانة الأفراد فيها...

1. مرحلة الحضارة العربية الإسلامية

1.1. التيار الفقهي . الماوردي: الإنسان حسب الماوردي حيوان اجتماعي وسياسي لكن الجديد عنده ال هو إدخاله للمعنى الديني حينما يقر بأن الله عز وجل هو الذي خلقنا عاجزين على هذا النحو حتى يشعرنا أنه خالقنا ورازقنا وأننا مفتقرون إليه، وببساطة أننا ضعفاء قاصرين محتاجين دائما إلى عناية الله، والدولة عنده قائمة على أسس تعاليم الدين الإسلامي يمتثل لها كل من الحاكم والمحكوم، وبالتالي فالحضارة العربية الإسلامية هي

حضارة لا سياسية لوجود طرف ثالث أسمى من الحاكم والمحكوم وهو الدين.

2.1. التيار الفلسفي

أ. الفارابي: أعطى الفارابي تشبيها بليغا للمدينة الفاضلة عندما شبهها بأعضاء الجسم التام والصحيح والتي تتعاون أعضاؤه فيما بينها لتقوم بوظائفها على أحسن ما يرام، وكل عضو يقوم بوظيفة معينة لتستمر الحياة، وهناك عضو واحد رئيسي وهو القلب وهناك أعضاء قريبة منه وليس بينها وبين الرئيس واسطة فهي في المرتبة الثانية، وهناك أعضاء تخدم ولا ترأس أصلا...وهكذا هي أجزاء المدينة، فكما أن الجسم يؤلف وحدة فكذلك المدينة تكون مرتبطة أجزاؤها بعضها البعض مرتبة بتقديم بعض وتأخير بعض آخر، وما نستنتجه هنا هو فكرة الوحدة العضوية والترتيب في كل الأمور من الأسفل على الأعلى أو العكس...أما رئيس هذه المدينة فليس كل عضو يصلح أن يكون رئيسا، بل الرئيس هو أكمل إنسان أو عضو فيها، ومن شروط الرئيس الفطرة والطبع والملكة والإرادة والعقل أي استكمل فصار عقلا ومعقولا بالفعل كما يقول الفارابي[17].

ب. أبو حامد الغزالي: حاول الغزالي أن يحدد ما يجب أن تكون عليه المدينة أو الدولة حتى تصبح فاضلة مثالية تختلف كل الاختلاف عن تلك التي تصورها أفلاطون والفارابي بحيث متى كان الاجتماع كان التعاون والخصام والنزاع وبالتالي وجدت الرياسة والولاية لأنه لو ترك الأمر هكذا لهلك القوم.، ومنه فالفرد له دور ووظيفة يقوم بها داخل المدينة أو الدولة حتى يحقق سعادته.

3.1. التيار الاجتماعي

أ. **ابن خلدون:** يرى ابن خلدون أن الاجتماع الإنساني ضروري ، الإنسان مدني بالطبع، أي لابد له من الاجتماع الذي هو المدينة بالمفهوم الحديث، ويقترب ابن خلدون من الأقوال السابقة على أن الإنسان غير قادر على توفير وسد حاجياته المتعددة بمفرده، لذلك وجب أو أضطر إلى الاجتماع والتعاون مع بقية الأفراد والجماعات لتلبية هذه الحاجيات. هذا التعاون يعطيه ابن خلدون عدة أبعاد منها :التعاون ضد العدوان الخارجي، والتعاون لبقاء الجنس البشري والحفاظ عليه وغيرها ...ولكن هذا الاجتماع يجب أن يكون له رئيس أو سلطان ينظم هذا الاجتماع ويحمي الأفراد من شر بعضهم البعض نظرا لما في الإنسان من طبائع حيوانية كالعدوان والظلم. كما أشار كذلك إلى أن الاجتماع والتعاون يقتضي تقسيم العمل وقد اشرنا سابقا أن أفلاطون يعد من الأوائل الذين اقروا بتقسيم العمل وتخصصه، وقد أكد سقراط قبله وعلى لسان أفلاطون هذه العناصر التي يجب أن تتوفر كشروط في نشأة الدولة والاجتماع عموما...

2.عصر النهضة (اليقظة) العربية الإسلامية

مرت الأمة الإسلامية بعد سقوط بغداد على يد المغول (جورج هولاكو) عام 1257م بحالة من التراجع بدأت بانهيار الخلافة الإسلامية وتوالى سلالات مختلفة (الأتراك والفرس) لحكم بلاد الإسلام، لكن هذه الحالة لم تكن

ثابتة ومستقرة حيث بدأت تهتز مع بداية القرن الرابع عشر ميلادي لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية إلى ... سقوط غرناطة 1492م .

وبعدها حاولت الخلافة العثمانية إعادة بعث مجد الأمة الإسلامية بداية من عام 1516م والمحافظة على هذا الدور، لكن مثلت فترة أواخر عهد الخلافة العثمانية أسود مرحلة من تاريخها وتاريخ الأمة الإسلامية لأنها قامت على العنصرية مما أدى بها إلى تدمير الهوية الأم (الإسلامية) في دينها ولغتها وتاريخها، وقد مهدت هذه الأحداث لوقع البلاد الإسلامية تحت نفوذ الاستعمار الأوربي. حينها بادرت بعض الأفكار أو المفكرين لإعادة بعث الأمة الإسلامية ونهضتها من جديد بداية من القرن التاسع عشر ميلادي، هذه النهضة أو قل اليقظة تمثلت في العديد من الاتجاهات الفكرية، وهي: الاتجاه الليبرالي والذي يمثله بدون منازع رفاعة رافع الطهطاوي، تم الاتجاه الثوري والذي يمثله جمال الدين الأفغاني والاتجاه الإصلاحي والذي يمثله على الخصوص الشيخ محمد عبده، وأخيرا الاتجاه القومي الذي يمثله ساطع الحصري.

1.2. الاتجاه الليبرالي

أ. رفاعة رافع الطهطاوي: بالرغم من تكوينه العلمي في مجال العلوم الدينية في جامع الأزهر، وأن انتقاله إلى فرنسا ليس للعلم وإنما لإمامة فرقة علمية، إلا أن الطهطاوي لم يكن حبيس التعليم التقليدي إن صح التعبير، بل أغتنم فرصة وجوده بفرنسا ليتعلم أولا اللغة الفرنسية ثم يدرس ما وصل إليه الغرب خاصة الفرنسيين في مجال الفكر السياسي والفقه أو القانون والتشريع، وهو ما جعل الطهطاوي عند عودته إلى مصر أن يحاول التوفيق بين العلوم الشرعية والعلوم الأخرى بحيث لا يكون هناك تعارض أو تناقض بينهما، وبهذا يكون الطهطاوي قد لمح لإمكانية تبني الأمة العربية والإسلامية لنظام ديمقراطي ليبرالي قائم على مبادئ الديمقراطية ودون المساس بالمبادئ الدينية التي حملتها الشريعة الإسلامية.

2.2.الاتجاه الثوري

أ. جمال الدين الأفغاني: إنك فعلا عندما تدرس السيرة الذاتية وأفكار جمال الدين الأفغاني تقف عند العديد من الحقائق التي قل ما تجدها عند باقي المفكرين الآخرين، إنه فعلا عالم منفرد، إن هذا الرجل لم يرتبط لا بمدينة ولا بإقليم ولا بوطن وإنما ارتباطه كان بقضية كبرى سخر حياته لها في سبيل نصرتها وتقدمها إنها القضية العربية الإسلامية، كما أنه لم يكن من محبي الدنيا وإغوائها وملذاتها فالرجل لم تكن له أسرة ولكن كان مرتبطا بأمة وشعوب وقد وصفه آخرون بأنه نشأ قطبا من أقطاب الفلسفة وعاش ركنا من أركان السياسة وتوافرت فيه قوى الفلاسفة ومواهب رجال الأعمال والسياسة.

3.2. الاتجاه الإصلاحي

أ. **الإمام محمد عبده:** لا يختلف محمد عبده كثيرا عن الأفغاني بخصوص التنقلات الكثيرة التي قادته إلى العديد من البلدان وهو ما جعل فكره يتوسع ويستوعب مختلف الأفكار ويحاول دراسة ما توصل إليه الغرب ليس من أجل التقليد فقط وإنما الاستفادة من هذه العلوم لإعادة بعث مجد الأمة العربية الإسلامية التي كانت في يوم ما المثل الذي يقتدي به، وقد ذكر عبده أن سبب الهزل الذي أصاب الأمة هو الجهل والتعصب والابتعاد عن الدين كما عرفه السلف الصالح قبل الخلاف، لذلك رأيناه يدعو إلى الإصلاح الديني مع الأخذ بالعلوم الحديثة ما دام الدين صديق العلم.

4.2. الاتجاه القومي

أ. **ساطع الحصري:** يعتبر ساطع الحصري أهم منظري القومية العربية، واهم فلاسفتها، حيث حمل لواء القومية العربية فكرا وممارسة، ويتضح ذلك من خلال المؤلفات والمناهج المدرسية التي تناولت كلها القومية العربية من جوانبها المتعددة، السياسية والاجتماعية والفكرية وحتى النضالية، ومنه أطلق عليه لقب " رائد الوحدة الثقافية العربية" . أعجب الحصري كثيرا بالفيلسوف الألماني فيختة الذي يرى بان اللغة هي أساس القومية، مستدلا على ذلك بالتجربة الألمانية في الوحدة بعد التجزئة، ثم قيام الوحدة الايطالية والبولونية وغيرها من الدول التي كانت مجزأة ومنقسمة ثم توحدت بفضل اللغة، وبالمقابل كيف انحلت وزالت الإمبراطوريتين العثمانية والنمساوية نتيجة اختلاف لغات الشعوب التي كانت تابعة لها.[18]

يؤكد الحصري أن العامل الثاني للقومية يكمن "في وحدة التاريخ لا في وحدة الأصل"، وأكد في مؤلفاته العديدة أن هذين العاملين (اللغة والتاريخ) هما المرتكز الرئيسي للقومية العربية ووحدة الأمة العربية، متجاهلا بذلك الدين كعنصر من عناصر القومية وهو ما خلق له العديد من الأعداء خاصة دعاة الرابطة الإسلامية، ودخل معهم في تناقضات فكرية كبيرة. ومنه يمكن أن نتساءل عن الدافع الحقيقي الذي جعل الحصري يركز على اللغة والتاريخ دون غيرهما من العناصر الأساسية والمباشرة في تشكيل وبناء القومية كالدين مثلا، خاصة وان اهتمامه العلمي والفكري هو القومية العربية الذي يعتبر الدين أهم رابط يجمع شعوبها؟

المفاهيم التي قدمها الحصري كانت في الحقيقة واقعية لأنه عاش الشتات والتشرذم الذي لحق بالأمم والدول وحاول تقديم رؤيته للواقع، كما أن تأثره الكبير من خلال دراسته للقوميات الغربية هو الذي جعله يركز على أن عوامل القومية التي وحدت الدول الغربية هي نفسها التي توحد الدول العربية متجاهلا بذلك المنهج البيئي المقارن.

ثالثا: مستقبل صراع وتبادل الدور بين الفرد والدولة في ظل الإكراهات الراهنة (العولمة)

1.صراع الدور في ظل العولمة

اجتهد الفلاسفة والمفكرين في كيفية بناء الدولة القومية وجعلها قوية داخليا وإنشاء جيوش وطنية للتخلص من المرتزقة، وذلك بعد الضعف والانهيار الذي عرفته العديد من الإمبراطوريات المترامية الأطراف، التي أصبحت ضعيفة ومحل الأطماع الخارجية، لذلك كان التركيز حول السبل الكفيلة التي يمكن من خلالها بناء دولة قوية مكتفية ذاتيا تصد الأعداء .. لكن الحروب والصراعات الدينية أنهكت الدول الأوربية على وجه الخصوص وخاصة حرب الثلاثين سنة ما تطلب عقد معاهدة الصلح بين الأطراف المتصارعة ورسم معالم الدولة القومية وتحديد أهدافها ومجالاتها، كون العوامل الاقتصادية والجغرافية والعسكرية لعبت دوراً مهمّاً في صعود بعض الدول وانهيار دول أخرى، كما أثّرت الحروب أيضا على الأوضاع الداخلية والخارجية للدول ما حتّم عليها عقد معاهدات لتنظيم العلاقات بينها، وكانت معاهدة (صلح أو سلام) وستفاليا 1648م أولى هذه المعاهدات التي عملت على تحقيق السلام والتوازن في أوروبا، فما هو مضمون وأهدافه هذه المعاهدة؟

تم توقيع معاهدة واستفاليا في 24 أكتوبر م1648 في ألمانيا ، وقد أنهى هذا الصلح حرب الثلاثين عاما (1618–1648)، وقد شارك في صلح واستفاليا مجموعة من الأطراف وهي الإمبراطورية الرومانية المقدّسة، مملكة إسبانيا، فرنسا، والإمبراطورية السويدية، وكان الهدف من هذه المعاهدة تسوية النزاعات بشكل عام والنزاعات الدينية بشكل خاص، وقد تعهد ملوك السويد وفرنسا بضمان شروط هذه المعاهدة، وعليه تعتبر معاهدة واستفاليا من أوائل المعاهدات الأوروبية التي سعت إلى إقامة ما يسمى بالتوازن الدولي في أوروبا. كما شكّلت المعاهدة تأطيراً لنظرية الأمن الجماعي الأوروبي، واتجاهاً جديداً في العلاقات الدولية، وكان لها أثر في إرساء قواعد القانون الدولي المتمثلة في مبدأ السيادة، ومبدأ الولاء القومي، ومبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول. فما هي النقاط الجوهرية التي كانت محل الاتفاق وشكلت بنود المعاهدة . الصلح . ؟

تتمثل بنود المعاهدة في النقاط التالية:

الاعتراف بالمذهب البروتستانتي اللوثري والكلفيني (التيار الديني المسيحي الثالث بعد الكاثوليك والأرثوذكس) أي الحرية الدينية، مما أسهم في نهاية الصراع الديني الذي عرفته أوربا

إعادة ممتلكات رجال الدين البروتستانت المنزوعة منهم قبل سنة 1624م

حرية العقيدة الدينية مع ترك الحرية المطلق للرعايا والأتباع في اختيار المذهب الذي يريدونه

الإعلان الرسمي لاستقلال هولندا وسويسرا.

احتفاظ فرنسا لكل من متز وتول وفردان وكذا معظم أراضي الالزاس ما عدا مدينة ستراسبوغ، ومنح السويد منطقة بريمن.

السماح لألمانيا وأمراءها بإبرام معاهدات وتحالفات فيما بينهم وتموين الجيوش بشرط أن لا يكون ضد الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

إعادة تنظيم المجلس الإمبراطوري بالتساوي بين البروتستانت والكاثوليك.

لا شك أن هذه البنود وبعد الاتفاق عليها تمخض عنها العديد من النتائج والقرارات ولعل أهمها يكمن فيما يلي:

نهاية حرب الثلاثين عاما .

تشجيع الاقتصاد من خلال إزالة الحواجز الجمركية وحرية الملاحة الجزئية على نهر الراين

ضعف الإمبراطورية المقدسة وفقدانها السلطة المركزية مما جعلها غير قادرة على سن القوانين وفرض الضرائب وتشكيل الجيوش.

تراجع دور ومكانة الكنسية بعد تنازلها عن الكثير من أملاكها، كما تقلص دور البابا وانحساره.

بداية التمثيل الدبلوماسي وتبادل السفراء والتعامل بين الدول قائم على مبدأي المساواة والسيادة .

بعد نهاية الصراع الديني تم الاهتمام بالإصلاح السياسي والدعوة إلى مبدأ التوازن الدولي[19].

فهكذا رسمت معاهدة واستفاليا معالم جديدة للدولة الوطنية بصفتها الوحدة الأساسية للمنظومة الدولية، وأصبح ينظر الى " سلام واستفاليا" على أنه مصدر سيادة الدولة القومية الحديثة، لكن مع نهاية الـ70. وبداية الـ80 من القرن الماضي نتيجة تسارع عمليات العولمة، بدأت الدولة الوطنية تفقد سيادتها على العديد من العمليات منها تحركات رؤوس الأموال وتدفق السلع والبضائع والشركات والمعلومات ناهيك عن حركات الهجرة النظامية وغير النظامية... كما ظهر في الأفق أن الدولة الوطنية كوحدة سياسية مستقلة تتجه الى النهاية بالنظر إلى الهجوم المتسارع لقوى العولمة مثل التكتلات الاقتصادية، والانترنت، والشركات المتعددة الجنسيات، إضافة إلى النمو والانتشار الواسع للمنظمات غير الحكومية والتي أصبحت تتدخل في الشأن الداخلي للدولة القومية بحجة حماية الأقليات وتعزيز حرية المرأة وتوزيع المساعدات والإعانات على الفقراء...ومنه جاءت أفكار تنادي بأننا أمام مرحلة ينفصل فيها الماضي عن المستقبل، فالعولمة الاقتصادية خلال ربع القرن الماضي كانت بداية لإعادة ترتيب حتمية لادوار السياسة والاقتصاد، مع خضوع الدول القومية لقوى السوق والاقتصاد والتقنية العلمية، وبحسب المنظرين مثل فوكوياما وهانتغتون وشومسكي لم يعد بإمكان التاريخ أن يكون دليل لفهم

المستقبل، مخالفا بذلك كل ما نعرفه عن التاريخ كونه الموجه، ولا يمكن معرفة أين نحن الآن وإلى أين سنتجه غدا إلا بالعودة إلى الماضي . التاريخ .

نهاية التاريخ بالنسبة لفوكوياما يتم بتصالح العقل مع الواقع وانتصار الفكر الليبرالي السياسي . .لقد بدأنا في السنوات الأخيرة نمارس حياة عصر ميزته التكامل الإقليمي والعولمة الاقتصادية وحدود يمكن خرقها وتجاوزها بسهولة فائقة وبالتالي من اللزوم توحيد الإنسانية ضمن اللبرالية الديمقراطية... لذا فإن انتشار معايير حقوق الإنسان والمواطنة العالمية والديمقراطية التي هي عمليات العولمة، كلها تشير الى أن سيادة الدولة الوطنية في حالة نهاية ومنهم من يرى بأن منظومة أو صلح واستفاليا الآن تعرف إزاحة عن موقعها المركزي بواسطة التغييرات العالمية ...

فبعد التطورات التي عرفتها هذه الدولة والمراحل المتقدمة والازدهار والرفاه خاصة الدول الغربية (عصر النهضة، العصر الحديث وعصر التنوير)... ظهرت بوادر إعادة النظر في مفهوم الدولة القومية خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ومرحلة الحرب الباردة وظهور الإيديولوجيات وانقسام العالم الى معسكرين وغيرها، ثم ظهور ما يسمى بالعولمة أو النظام العالمي الجديد الذي وإن تعددت تعاريفه إلا إنها افتقرت لعنصر التوافق، نتيجة لتعدد الرؤى والزوايا التي قدمت هذه التعاريف، فهل الجانب الثقافي هو المحدد أو الجانب الاقتصادي أو السياسي ...إلخ ؟

وبما أن موضوعنا يدور حول دور الدولة والفرد من خلال تطور الفكر السياسي وفي ظل العولمة، وأن الدولة وهيئاتها موضوع رئيسي لعلم السياسة، سنركز على الجانب السياسي أكثر دون إغفال المجالات الأخرى لأنها متشابكة ومترابطة ومن الصعوبة بما كان الفصل بينها.

2. المظاهر السياسية للعولمة

تتمثل العولمة من الجانب السياسي بدرجة عالية من التشابك والتعقيد والتداخل في العلاقات الدولية نتيجة التطور غير المسبوق في مجال تكنولوجيا الإعلام والاتصال الذي أدى إلى إزالة الحواجز التقليدية (السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية) بين المجتمعات. ومنه يمكن لنا التساؤل عن دور الدولة الجديد في خضم هذا التشابك أو هل ينتهي دورها تماما في ظل العولمة؟

الدولة هي محصلة تفاعل قوى داخلية وخارجية، وتتأثر الدولة بكل أركانها الثلاثة المعروفة بظاهرة العولمة والنظام العالمي الجديد القائم على الإبداع العلمي والتطور التكنولوجي وثورة الإعلام والاتصال الذين غزوا العالم والدول مخترقين الحدود بين الشعوب وأصبح العالم قرية كونية صغيرة تحت سيطرت النمط الغربي أمريكا

وأوربا[20].

العولمة من شأنها أن تضعف الدولة بشكلٍ عام حتى تهمشها تماماً كي لا تقف أمامها عائقاً أو عقبة في عملية دمج الشعوب والثقافات ... التي من شأنها بناء مكان عالمي محدد وجديد يعرف بـ الدولة العالمية، فإلغاء الحواجز والحدود الدولية والجغرافية هي من مبادئ العولمة، ويمكن أن تهدف العولمة أيضاً إلى إلغاء السيادة الوطنية للدولة بصفتها ركن من أركان الدولة على غرار الشعب والأرض والسلطة . وتهديد الثقافات العالمية والخطر يتمثل في مسح الهوية الخاصة بكل شعب وإحلال ثقافة عالمية واحدة محل ثقافات الشعوب والأمم.

من ظواهر العولمة السياسية ظهور الديمقراطية العالمية أو عولمة الديمقراطية التي نتجت في ظل وجود فلسفة سياسية عالمية جديدة تنص على إحلال الديمقراطية محل السيادة الوطنية وهو ما تقوم بعمله بعض الدول الكبرى مثل الولايات المتحدة الأميركية.

تتشابه العولمة السياسية والعولمة الاقتصادية في تدمير وتفتيت السيادة الوطنية للدولة. ويتضح لنا ذلك من خلال قيام منظمة التجارة العالمية والبنك الدولي بفرض نمط معين من السياسات العامة والسياسيات الاقتصادية على دول العالم الثالث، والتي تلحق الضرر بطبقة الدخل المحدود في المجتمع، مما يتسبب ظهور الاضطرابات الشعبية والعنف السياسي داخل الدولة.

3. المظاهر الاقتصادية للعولمة

تتجلى مظاهر العولمة في جانبها الاقتصادي والإنساني بشكل لافت، نتيجة التفاوت الخطير بين البشر من خلال الأرقام والإحصاءات التي تقدمها الهيئات الدولية مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، وهو تفاوت غير أخلاقي بالطبع، ومتعارض مع مبادئ العولمة ومؤسساتها المتمثلة في مد يد العون والمساعدة للشعوب الفقيرة لتحسين مستوى حياتها، لكن النتيجة أن فقراء العالم ازدادوا فقرا والأغنياء ازدادوا غنا والمساعدات والقروض الممنوحة من الهيئات الدولية أثقلت كاهل الدول وعجزت عن سدادها وأصبحت رهينة هذه الهيئات.

4. مظاهر العولمة الثقافية وعولمة القيم

تقوم عولمة القيم اليوم على ثنائي العنف والجنس في وسائل الإعلام وفي السينما العالمية وفي القنوات الفضائية التي دخلت اليوم إلى كل بيت.. وكذلك على تنميط القيم ومحاولة جعلها واحدة لدى البشر في المأكل والملبس وفي العلاقات الأسرية وبين الجنسين وفي كل ما يتصل بحياة الإنسان الفردية والجماعية..وخصوصا قيم الاستهلاك.

العولمة في مساراتها الثقافية يبرز فيها الجانب القيمي والأخلاقي بشكل أوضح، سواء على مستوى التحيز عند

التعامل مع الدول في مختلف القضايا، أو على مستوى تهميش الآخر وعدم الاعتراف بخصوصيته. ويتجلى ذلك من خلال ما يلي:

دخول ثنائي العنف والجنس في وسائل الإعلام العالمية والسينما والقنوات الفضائية كل البيوت وما يشكل ذلك من تهديد على منظومة القيم والأخلاق.

يعد تنميط القيم في الأكل والملبس والعلاقات الأسرية وبين الجنسين وفي كل ما يتصل بحياة الإنسان الفردية والجماعية وخصوصيات قيم الاستهلاك ومحاولة جعلها واحدة لدى البشر إحدى أهم ركائز اقتصاد العولمة وانعكاساتها على القيم.

أمام هذه الموجة المتسارعة من انتشار قيم العولمة، انقسمت الآراء إلى قسمين، فمنهم من يرى بأن هذا الأمر طبيعي وهو نتاج إنساني متقدم كما حصل مع التطورات التي عرفتها الإنسانية وانتقالها من الحياة الطبيعية والبدائية الى الحياة المدنية والمنظمة، وعليه يجب الأخذ بها جملة وتفصيلا ولا يصح الحديث عن خصوصيات تؤدي الى العزلة والتهميش، بينما يرى الطرف الثاني عدم التفاعل مع هذا النمط من قيم العولمة والعودة والاحتفاظ بالخصوصية الثقافية، ولا يقتصر هذا الأمر البلدان العربية الإسلامية، بل حتى فرنسا مثلا تعاني من الغزو الثقافي الأمريكي .

ومهما يكن فإن قدرة التحكم الهائلة والسيطرة في مجالات الإدارة والاقتصاد والسياسة ووسائل الاتصال ومصادر المعرفة ومصادر الأخبار والمعلومات، تجعل الغرب الأميركي/ الأوروبي، هو مصدر العولمة، وعليه جعل هذه العولمة تسير باتجاه واحد شمال– جنوب، وليس باتجاه التفاعل بين شعوب العالم كما يقول المدافعون عن العولمة وثقافتها، الذين ذهب بعضهم إلى القول إن عصر العولمة سينهي الخصوصيات الثقافية والقومية طالما أن العالم يسير باتجاه "قرية كونية واحدة ."

تميل موازين العولمة ولأسباب كثيرة لمصلحة الغرب ودوله، وهذا الأخير يتصرف باعتباره مرجعية العالم سياسيا "وثقافيا" واقتصاديا، المركزية الغربية والاستعلاء الحضاري الغربي، تلعب منظماته الدولية والإقليمية دورا "مباشرا" بين شعوب الدول غير الغربية وخصوصا في الدول العربية والإسلامية في محاولة تثبيت هذه المرجعية. وهكذا تقوم تلك المنظمات بنشاط مشترك مع الهيئات والجمعيات المحلية (ندوات ومؤتمرات..) للبحث في حقوق الإنسان وحقوق المرأة والعنف الأسري والمجتمع المدني وغيرها، وعلى الآخر غير الغربي أن يتعلم منها ويتبناها لكي ينتقل إلى حالة أفضل من الحالة التي هو عليها بغض النظر عن القيم التي تنظم حياته وعلاقاته الأسرية والعاطفية والاجتماعية، فعدم قبول الأخر كما هو وعدم الاعتراف بخصوصيته الثقافية والدينية

يتعارض مع بديهيات المبادئ الأخلاقية التي تقوم على الاحترام المتبادل بين الأفراد والجماعات[21]

يشبه التدخل في المجال الأخلاقي والثقافي باسم العولمة ما يجري اليوم في عالم السياسة والقوة، حق التدخل الإنساني لإنقاذ هذه الجماعة أو الأقلية العرقية أو الدينية، أو للدفاع عن مصالح هذه الدولة أو تلك تجاه أي "خطر" حقيقي أو مفتعل.. لذا فالعولمة تشكل خطرا حقيقيا في الجانب الأخلاقي وعلى المستويات الثلاثة، السياسية والثقافية والاقتصادية، ومنه تبرز المظاهر الجديدة للدولة الحديثة وسيادتها وكيف أن العولمة قلبت المبادئ والأسس التي ناضل من اجلها العديد من الفلاسفة والمفكرين منذ الحضارات القديمة، وهي إنشاء دولة قومية قوية داخليا ومهابة خارجيا، تقوم بنشر العدالة والأمن وتعمل لتحقيق رفاهية المجتمع وتحقيق سعادته...

الخاتمة

يتمثل التفسير العلمي لصراع وتناوب الدور بين الدولة والفرد من خلال تتبع المراحل والمحطات الحضارية التي عرفتها البشرية شرقا وغربا، والزخم المعرفي والتراكم العلمي والممارسات الميدانية كلها عوامل مساعدة لتفسير هذا الصراع أو تناوبه.

فإذا كانت الحضارات الشرقية القديمة لم تخصص حيزا أو دور محددا للفرد يوازي أو ينافس الدولة، كونها حضارات اهتمت بكيفية تأسيس الدولة وتعزيزها ولعب الدور والوظيفية الأساسية التي أنشئت من اجلها وهي التوسع، لذا كان على الأفراد الامتثال لقرارات الحاكم والطاعة والخضوع وإلا كان مصيره الهلاك، كما أن الدولة ظهرت وتكونت كضرورة حتمية لصراع الأفراد فيما بينهم الذي كان سمة الحياة الطبيعية المتوحشة حسب بعض المفكرين، بينما اعتبره آخرون بأنه مرحلة تطورية انتقل الإنسان الفرد من الحياة غير المنظمة الى الحياة المنظمة الاصطناعية . المدنية . وذلك بتوفير سبل الحماية له ولممتلكاته.

اهتمت الحضارة الإغريقية بالدولة وقوتها وأسندت لها أدوارا ودعت الأفراد للعيش في كنفها من اجل تحقيق سعادتهم، وأن الفرد الذي يعيش خارج الدولة فهو إما إله أو بهيمة... لكن هذه الأفكار والمثل ما فتئت تنهار أمام هجمات الاسكندر المقدوني الذي ضرب عرض الحائط مبادئ الدولة القائمة معتمدا على القوة في محاولته لاحتلال العالم ولو ثقافيا واجتماعية وجعله دولة عالمية وتشكيل جيش عالمي...وعندما توفى الاسكندر وانهار جيشه تعالت الأصوات عن جدوى وجود الدولة لأنها ببساطة عجزت عن تحقيق الأهداف التي أنشئت من اجلها ولم تقم بالأدوار والوظائف المنوطة بها... حينها ظهرت مدارس فكرية تدعو الفرد للبحث عن سعادته وأمنه بنفسه وطرحت إشكالية جديدة تتمثل في كيف يمكنني أن أعيش عكس الإشكالية السابقة التي طرحها أرسطو وهي كيف يمكن للبشرية أن تعيش؟

عرفت من جهتها الإمبراطورية الرومانية قبل وبعد ظهور المسيحية فسادا أخلاقيا وسياسيا دفع بالعديد من المفكرين على غرار شيشرون وسينيكا وأوغستين وتوما الاكويني بضرورة العودة الى التمسك بالأخلاق والتحلي بالفضيلة لإنقاذ روما قبل فوات الأوان، وبعدما أصبحت المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية دعا بعض المفكرين كذلك التقيد بمبادئ الدين المسيحي شعبا وحكومة. لكن الإمبراطورية الرومانية دخلت في صراع بين الأباطرة ورجال الدين زيادة على التلاعب بالدين من قبل البابا وإتباعه ومنه دخلت الحضارة الرومانية في مرحلة سبات عرفت بالعصور الوسطى أو العصور الظلامية، بالمقابل عرفت الحضارة العربية الإسلامية مع ظهور الدين الإسلامي بداية الإقلاع الحضاري حيث اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وساد فيها العدل والمساواة خاصة في عهد الرسول صل الله عليه وسلم وفي عده الخلفاء الراشدين، وتوالت الخلافة الأموية والعباسية في التوسع والتمكين للدين الإسلامي، مع بعض الانحرافات والضعف الى أن سقطت الخلافة العباسية سنة 1257م، وقد عرفت هذه المرحلة بروز العديد من الفلاسفة المسلمين الذين اهتموا بالسياسة والحكم وقدموا العديد من الإسهامات خاصة ما تعلق بعلاقة الحاكم بالمحكوم وامتثالهما لمبادئ الدين الإسلامي.

لكن الحضارة الغربية تنهض من جديد من خلال عصر النهضة الأوربية بداية من القرن السادس عشر حيث ساهم العديد من المفكرين والفلاسفة في دراسة الدولة ودورها وعلاقتها بأفراد المجتمع، فمن ميكيافلي الذي ركز على قوة ودهاء الأمير الى بسط السيادة على الأفراد وفق أطروحة بودان ثم الإصلاح الديني البروتستانتي الذي كشف مزاعم الكاثوليك وتلاعبهم بالدين المسيحي، وبعده نظرية العقد الاجتماعي وكيف يجب أن يكون هذه العقد وأطرافه وهدفه مع اختلاف وجهات نطر الفلاسفة في ذلك: هوبز ولوك ورسو، ..ثم إسهامات مونتيسكيو في قضية الفصل بين السلطات والحرية السياسية وكيف أن الفرد حرا وليس بالمفهوم المطلق بل وفق قوانين الدولة..

كما عرفت هذه المرحلة دخول الدول الأوروبية في صراعات سياسية ودينية طويلة، لتأتي معاهدة وستفاليا وإقرار الصلح بين هذه الدول وإعطاء الدولة الوطنية مكانتها ودورها باعتبارها وحدة التحليل الأساسية مع عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول،

على شاكلة النهضة الأوروبية، كانت هناك بوادر لنهضة عربية إسلامية تمثلت في أربعة تيارات فكرية، ليبرالية وثورية وإصلاحية وقومية، لكن لم يكن لها صدى كبير ولم تغير واقع الدول العربية الإسلامية، لذلك تم وصفها باليقظة وليس النهضة.

اهتز دور الدولة مع ظهور العولمة وتداعياتها السياسية والاقتصادية والثقافية والقيمية وتراجع مفهومها

التقليدي وتم فسح المجال للأفراد ومنظمات المجتمع المدني بلعب ادوار كانت حكرا على الدولة، كما أن مخرجات معاهدة واستفاليا أصبحت على المحك.

في ختام هذه الدراسة توصلنا إلى نتائج هي في الحقيقة تأكيد لفرضيات الدراسة، وإجابة على الإشكالية المطروحة التي تساءلنا فيها عن حقيقة الصراع أو تناوب الدور، حيث تبين فعلا انصهار أدوار الأفراد داخل الدولة الوطنية في أغلب الحضارات التي عرفتها البشرية ليعم التعاون والتكاثف وتبادل المزايا والمنافع وينعم المجتمع بالسعادة والحماية، ولكن في مراحل معينة، وعندما عجزت الدولة عن توفير الحياة السعيدة وأمن الأفراد تساءلت بعض الأطراف عن جدوى وجود الدولة وبدأ الحديث عن البحث في الأسباب التي تحقق سعادة الفرد خارج الدولة، وفي الأخير، ومع تطور وسائل الإعلام والاتصال والتطور التكنولوجي والانترنت والعولمة.. كل هذه المعطيات الجديدة زادت من الشرخ القائم بين الفرد والدولة الوطنية وأججت بذلك الصراع الداخلي واهتزت ثقة الأفراد في دولتهم. كما فرضت العولمة نماذج غربية على دول العالم، من خلال امتلاكها التكنولوجيا ووسائل الإعلام، ويبدو أن الخاسر الأكبر من كل ذلك هي الدول العربية الإسلامية لأنها ستضرب في دينها وعقيدتها وثقافتها وقيمها.

الهوامش

[1] مصطفى النشار، **الخطاب السياسي في مصر القديمة**، ط1، القاهرة : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ،1998 ، ص .22

[2] . علي محمد جعفر، **تاريخ القوانين**، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1998، ص 29.

[3] . أندري إيمار، جانين أبوايه، **الشرق واليونان القديمة**، (ترجمة :فيد م ، واعز، وفؤاد ح أبو ريحان) ، ط1، بيروت :منشورات عويدات، 1964 ، ص. 592 .

[4] . أحمد فؤاد الأهواني، **نوابغ الفكر الغربي :أفلاطون**، القاهرة : دار المعارف،1965 ، ص 314

[5] . النشار، **المرجع السابق الذكر**.

[6] . جان توشار، **تاريخ الفكر السياسي**(ترجمة :علي مقلد)، ط 2 ، بيروت :الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، .1983 ، ص36

[7] . محمد علي أبو الريان، ، **تاريخ الفكر السياسي :أرسطو والمدارس المتأخرة**، الجزء الثاني، بيروت :دار المعرفة الجامعية، 1990، ص226

[8] . عبد المجيد عمراني، **محاضرات في الفكر السياسي** ، الجزائر :(منشورات جامعة باتنة،.1999 ، ص 35.

[*] .المواطن عند أرسطو هو من يشارك في العمل السياسي بصفة مباشرة

[9] . عمار، بوحوش، ، **تطور النظريات والأنظمة السياسية**، ط2، الجزائر :المؤسسة الوطنية للكتاب،1984 ، ص 86.

[10] .. عبد الوهاب الكيالي، **الموسوعة الفلسفية**، بيروت :المؤسسة العربية للدراسات والنشر،1984 ، ص.515

[11] . جورج سباين، ، **تطور الفكر السياسي**، (ترجمة حسن جلال لعروسي)، الكتاب الثاني، ط2، القاهرة :دار المعارف، د.ت.،

ص.243

[12] . محمد نصر مهنا، **في تاريخ الأفكار السياسية**، الإسكندرية :المكتب الجامعي الحديث،1999 ، ص.84

[13] . جورج سباين، الكتاب الثاني، **المرجع السابق الذكر**، ص.261

[*] . في سنة 410 هاجمت قبيلة القوط `GOTHS روما وخربتها، واتهمت بعض الأطراف ذلك بسبب باعتناق روما للديانة المسيحية، فرد عليهم اوغستين بان روما الوثنية ليست أقوى من روما المسيحية، واعتناق المسيحية هو الحل...

[14] . عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، **التاريخ السياسي والفكري**، القاهرة :دار المعارف،1988 ، ص134

[15] . توشار، **المرجع السابق الذكر**، ص232

[16] . جورج سباين، الكتاب الثالث، **المرجع السابق الذكر**، ص555

[17] . كامل حمود، **دراسات في تاريخ الفلسفة العربية**، بيروت :دار الفكر اللبناني، د.ت، ص98

[18] . نورالدين حاروش، **تاريخ الفكر السياسي**، ط4، الجزائر: دار الأمة للنشر والتوزيع، 2017.

[19] . أيمان بن عامر **https://political-encyclopedia.org/dictionary/ نشر في07-03-2022**:

[20] . عبد الرزاق بحري، دور الدولة في ظل العولمة، مجلة صوت القانون، المجلد 6، العدد2/نوفمبر 2019) https://www.asjp.cerist.dz/en/article/103654

[21] . طلال عتريسي، 2004).https://www.aljazeera.net/opinions/2004/10/3/